عصير الكتب
للنشر الالكتروني

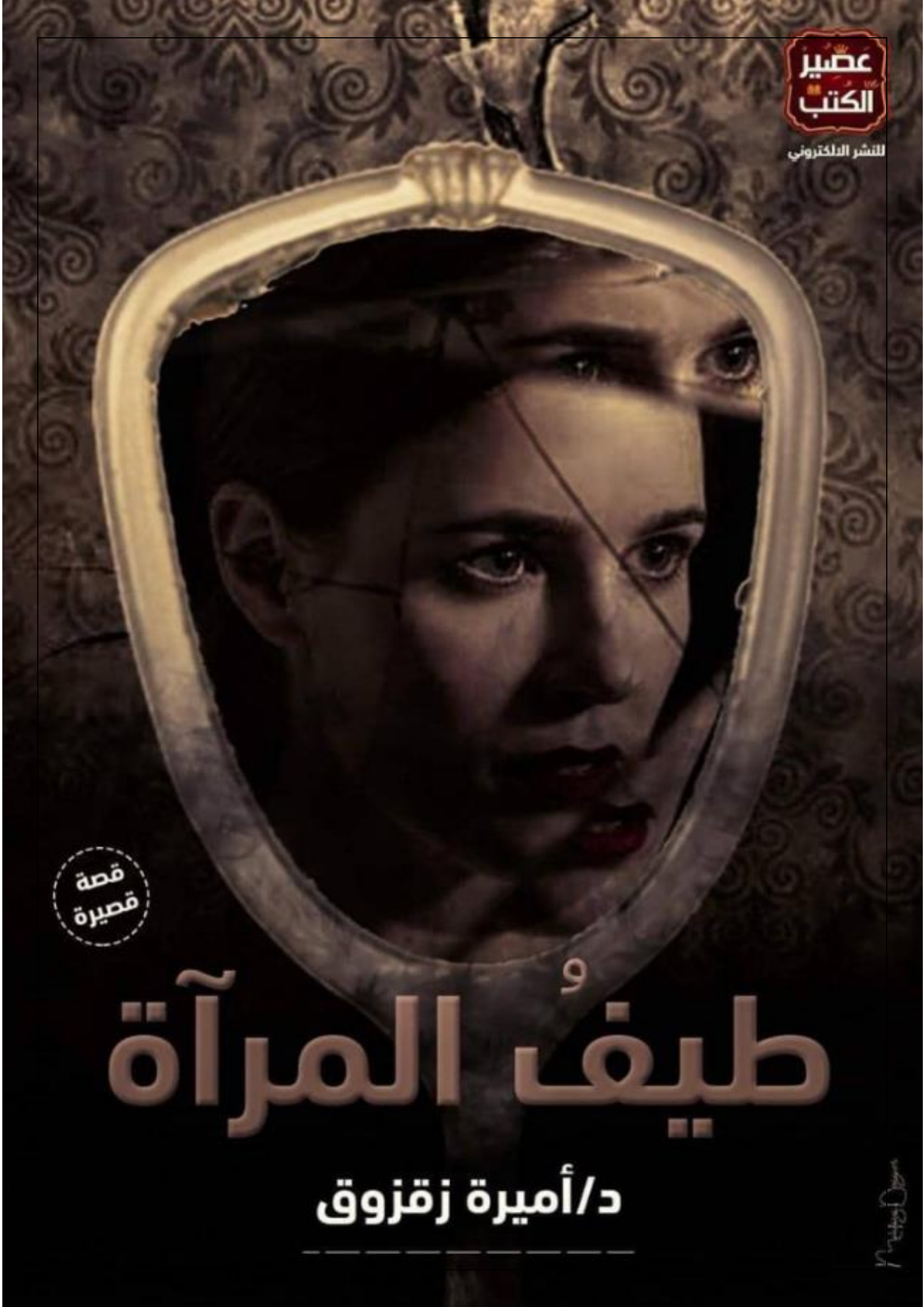

قصة قصيرة

طيفُ المرآة

د/أميرة زقزوق

قصة: طيفُ المرآةِ

للكاتبة: أميرة زقزوق

تصميم الغلاف: محفوظ أحمد

مراجعة لغوية: آية شمس

بداية عام دراسي جديد وبداية حياة جديدة لي، لم أعتد من قبل على ترك والديّ فأنا الفتاة الوحيدة المدللة من والدها والمكروهة من أمها، أمر غريب بعد كل تلك السنوات أن أُقدم على العيش بسكن طالبات!! ولمَ بعد الثلاث سنوات المنصرمة التي اعتدت فيها الذهاب والإياب!! لا أعرف ولكن جل معرفتي أن هناك طيف خفيّ كان يناديني للعيش هنا هذا العام، تأملت الأثاث البسيط حولي بأعين تاه عنها الفضول وإنما امتلأت بالتعجب، شعور غريب امتلأ به وجداني وأنا أمرر أصابعي على التلفاز الموضوع بمنتصف الصالة بأنه جزء لا يتجزأ من ذكرياتي، إحساس مُبهم بأني رأيت كل ما بهذه الشقة من قبل! ولجت غرفتي وأنا ألقي نظرة سريعة على الغرفة المجاورة التى ما تزال خاوية، ترى كيف سيكون من سيسكن معي؟ أفرغت مكونات حقيبتي وعبأت ملابسي في الدولاب الخشبي قديم الطراز وكأنما عفا عليه الزمن، بحرص شديد أغلقته بعدما انتهيت من عملي كي لا يقع بابه، انقبض قلبي وشعرت بوحشة غريبة لم أتبين مصدرها، فلست أنا الفتاة التي تخشى الوحدة وإنما أستأنس بها، تسللت إلى الحمام وأفسحت مجالًا للمياه الساخنة كي تُزيل عن جسدي عبء يومه، أغمضت عيني باستسلام لخدر المياه الساخنة.. انتفض جسدي وجمد الدم بعروقي حين سمعت همهمات آتية من ركن ما داخل الحمام، وكأن جسدي قد شُلت حركته.. لم أقو على مُباعدة ما بين جفناي، ساد الصمت ولم يقطعه سوى ضربات

خافقي التى جن جنونها، بشجاعة مواتية فتحت عينيّ لأتطلع حولي بأنفاس متسارعة وكأنما أبحث عن شيء لا أعلم كنهه، ولكني تنفست الصعداء حين لم أجد شيئًا سوى بخار الماء الذي تشبع في ذرات الهواء حولي. أغلقت المياه ووقفت أمام المرآة أُجفف شعري قبل أن أنسل داخل ملابسي، رفعت ناظري وهممت بإزالة بخار الماء من فوق المرآة كي يتسنى لي النظر لوجهي، ولكن كل ذرة بجسدى قد صرخت رعبًا حين رأيت وجهًا دميمًا يقف خلفي، لم أتبين ملامحه بل إني لم أتبين أإنسان هو أم لا؟ ليس فقط من الخوف وإنما لسرعة اختفائه، حدقت بالمرآة زمنًا قبل أن ألتفت ببطء بينما رجفة رعب سرت بأوصالي جعلت بردًا مميتًا يكاد يجمد أطرافي، وحين لم أجد شيئًا تذكرت أنني توقفت عن التنفس فسحبت نفسًا عميقًا انتفخت به رئتاي، وبلمح البصر كنت قد تكورت فوق فراشي أستعيذ بالله من الشيطان وأتلو ما أسعفتني به ذاكرتي من القرآن إلى أن غفوت ولم تغفُ ارتجافة قلبي..

****

طالما كانت ذاكرة الانسان سريعة العطب، فسرعان ما انقضت الأيام والليالي ونسيت طيفُ المرآة، بل وكأنما لم يحدث في الأساس، امتلأت الغرفة المجاورة لغرفتي بثلاث فتيات في مثل عمري وإنما بكليات مختلفة، في البداية كانوا يسرفون وقتهن في النوم يصلون به الليل

بالنهار، لم أُعرهن أدني اهتمام، فقد كنت أقضي وقتي كله بغرفتي أدرس أو أشاهد فيلمًا على هاتفي المحمول، إلى أن أتت تلك الليلة كنت أسمع أصداء ضحكاتهن لتدخل داخل عقلي كماس كهربي، لم يهتموا يومًا بالدراسة وإنما باللهو واللعب، بسببهم كنت أتغيب كثيرًا من محاضراتي فقد كنت أغفو في وقت متأخر بسبب أصواتهن العالية، ولكن الأمر لم يقف عن هذا الحد، فقد كنت أسمع صوتًا غريبًا دخيلًا على أصواتهن، صوت رجل يضحك معهن! كان صوته جهوريًا خشنًا جعل قلبي يتقلب بين الرعب والفزع.

كانت ليلة حالكة السواد حين تعالت أصواتهن وبدأ صوته يعلو معهن ليجثم فوق صدري ويخنق أنفاسي، رميت الوسادة التي كنت أحتضنها وبجسد أنهكه الإعياء قمت بتثاقل لأنهرهن على فعلتهن، كيف يتجرأن ويصل بهم الحال لجلب رجل داخل سكن طالبات! ولكن المفاجأة وقعت على رأسي كزلزال مدوي شق جسدي لشقين حين فتحت باب غرفتهن على حين غفلة ولم أر سوى ثلاثة أزواج من العيون تحملق فيّ بذهول، أين الرجل؟

سألتني إحداهن: أهلا جهاد أتودين شيئًا أم إنك كالعادة لا تستطيعين النوم من أصواتنا؟

ماجت نظراتي بأنحاء الغرفة لا أدري عن ماذا أبحث، فجاءني صوت أخرى تتهكم بسخرية: الطالبة المجتهدة تود النوم مبكرًا كالدجاج يا فتيات أرجوكن لا تزعجوها بأصواتكن العالية.

جادت حنجرتهن بضحكات عالية ساخرة بينما كنت واقفة أنظر إليهن بحقد، اندفعت لغرفتي تقودني الحيرة ويتأبطني الغيظ، اندسست داخل فراشي وأنا أتخيلهن بذهني وقد أمسكت كل واحدة منهن ونتفت شعر رأسها نتفًا إلى أن خَمد غيظي وبَهت غلي منهن واستغرقت داخل نوم عميق ولأول مرة لم تكن لأصداء ضحكاتهن أثرًا مانعًا أمام أحلامي.

****

كانت صرخة فزعة مدوية هي التي أيقظتني، انطلقت بوجل نحو مصدر الصرخة وكانت غرفة الفتيات فما كان مني إلا أن كتمت شهقة جاهدت لتخرج من بين شفتي واضعة يدي على فمي بإحكام، شعرت بنفسي أغوص داخل هوة عميقة بعدما أتى المشهد أمامي كشرخ كبير قصم رأسي نصفين، كانت الفتيات الثلاث بلا شعرة واحدة برأسهن!!

تسمرت مكاني مأخوذة أنظر إليهن باكيات ممسكات بشعورهن الساقطة فوق أرض الغرفة وأصوات صرخاتهن تكاد تفتك بنياط قلبي، كنت كمن يشاهد من عالم آخر، ولسبب ما وأيضًا بدون سبب

حانت مني التفاتة نحو غرفتي، وكأنما ناداني أحد منها بالرغم من خلوها، ولكنه كان هناك.

الطيف الأسود ينظر إليّ بابتسامة قبيحة هزت كياني هزًا، لم ينطق بحرف ولم تتحرك شفتاه الضاحكتان ولكن بطريقة ما سمعت همهمات صادرة منه، همهمات كتلك التي سمعتها بالحمام أول يوم، وكأنها لغة جديدة أدركت ما يود قوله لي

" لقد نفذت رغبتك"

غاب وعيي وحينما استيقظت كنت على فراشي نفسه الذي كان يجلس عليه هذا المخلوق، طالعتني أوجه الفتيات وتعابيرهن تنم عن فزع وخوف حقيقي، انتابني شيء من تأنيب الضمير زوده رؤيتي لتلك الشعيرات المستعارة التي لجأوا إليها، تناوبوا على رعايتي لمدة ثلاث أيام إلى أن تخلت الحُمى عني، حاولت الانخراط في حياتي مجددًا وتناسي ما قد حدث وإن عزّ عليّ الأمر، قابلتني (إسراء) زميلتي بالكلية والوحيدة التي تهتم لأمري لسبب لا يعلمه إلا الله، فلطالما رآني الجميع معقدة وغير اجتماعية وصعبة التعامل، وعندما سألتني عن سبب غيابي قصصت لها ما

قصصت لها ما قد حدث دون أدنى شك أنها ستصدق ما أقول، إلا أنها اكتفت بهزة من رأسها تبعتها ضحكة رقيقة قبل أن تقول بخفة: ما

دهاكِ يا جهاد فهذا ليس بالمزاح الجيد، أرجوكِ عودي لجديتك ولا تحاولين التفوه بالنكات مرة أخرى.

لم أعلق وإنما اكتفيت ببسمة فاترة.. تجاوزت هي الموضوع ولكن أنا فلا، فبغير قصد منها قد ضربت جرحًا حساسًا لديّ، لمَ لا يراني أحدهم خفيفة الظل؟ لمَ عليّ أن أتلبس وجه فتاة ضحوك كي يُعجب بيّ أحدهم؟، لف الحقد قلبي حين جاء خطيبها يعلو وجهه ابتسامة منبعها القلب حين وقع بصره عليها، تذكرت خطيبي السابق الذي هجرني لأنني فتاة عملية لا أسبب له شيئًا من البهجة، تمنيت داخلي لو يتركها خطيبها مثلما حدث معي أنا، فلمَ لا تتذوق من مرارة الخذلان شيئًا؟!

انصرم اليوم بسلام وعدت أدراجي للسكن الذي بات البقاء فيه عبئًا ثقيلًا يجثو فوق أنفاسي، ارتميت فوق الفراش غير عابئة بشيء سوى رغبتي العارمة في التيه داخل عالم الأحلام. شعرت بهزة هاتفي داخل حقيبة يدي أخرجته وأجبت بعد أن رأيت أن (إسراء) هي المتصل، اعتدلت بفزع فوق الفراش عندما أتاني صوتها الباكي المنتحب، حاولت تفسير شيئًا من أحرفها التائهة بين شهقاتها ويا ليت ما حدث، فما كانت تقول سوى أن خطيبها قد هجرها، تمامًا مثلما تمنيت أنا!!

اعتراني الهلع، وشعرت برأسي يثقل ويثقل وكالممسوسة وقفت بمنتصف الحجرة أدور حول نفسي وأنا أخاطبه بهلع: لمَ تفعل هذا؟ ماذا تريد مني؟

وكأنما كنت على يقين من وجوده معي ظهر من العدم فوق فراشي، هالني مظهره بادئ الأمر، فقد كان وجهه شديد السواد بياض عينيه حال أسود أو هو بالفعل أسود اللون من الأساس، بالرغم من كونه لا يمتلك أنفًا إلا أنه يمتلك شفتين مبتسمتين مظهرهما قبيح وكأنما قد تم تجبيسهما على هذا الوضع، ولكني تجاوزت خلقته الدميمة تلك وأخذت أصيح به: لمَ تفعل هذا بمن هم حولي؟

تطلع إلي بتأمل وفضول شديدين حتى خُيل إليّ أنه يتفحص شيئًا خياليًا، جاءت همهماته هذه المرة واضحة جلية فما عادت همهمات وإنما أصبح صوتًا جهورًيا: ماذا فعلت؟ إني أنفذ رغباتك؟

هدرت به وكأنما هو طفل عنيد وليس مخلوقًا غريبًا يجب اللوذ بالفرار منه: ومن أوكل لك الحق بهذا؟

جف حلقي وتاهت أنفاسي حينما جاءني جوابه: أنتِ من أعطيتني هذا الحق منذ أول يوم جئتِ به إلى هنا، عندما سمعتِ خطابي لك بينما تتحممين فكان غلقكِ لعينكِ هو الموافقة بعينها على كلماتي.

صقيع بارد اجتاح جسدي كله، سألته بترقب: وما كانت كلماتك تلك؟

ضحك ضحكة مخيفة ولكنها كانت مألوفة، نعم هي تلك الضحكة التي سمعتها من غرفت الفتيات من قبل، أجاب بعدما فرغ من الضحك: لقد طلبت أن أكون محقق أمنياتكِ المنطوقة منها والغير منطوقة.

بدأت الغرفة تدور من حولي، وصدى ضحكاته يتردد داخل عقلي فيبلغ فزعي أقصاه، أنفاسي تتسارع، وجهه القبيح يزداد قبحًا، الغرفة تدور وتدور، الكائن يضحك وقلبي يأكله الفزع.

لا أدري كيف انطلقت هاربة من الغرفة ولا كيف خرجت من المنزل لا أذكر كيف ركضت في الطرقات كل ما أذكره هو وجه إسراء الوجل عندما انشق باب شقتها ووجدتني أمامها قبل أن تخور قواي وأسقط عند قدميها..

****

" ما هذا الهراء ياجهاد؟ لم يحدث شيء مما تتفوهين به، لم يتركني خطيبي ولم أُحادثك أمس أبدًا، بل إننا لم نتحدث منذ بدء العام الدراسي!"

تطلعت إليها بفزع، بحثت في وجهها عن إمارات الكذب، ولكني لم أجد سوى ملامحها البريئة تطالعني بتعجب ودهشة شديدين، خرج صوتي ضعيفًا متقطعًا: ولكن.. لقد كنا سويًا اليوم.. ماذا تقصدين بأننا لم نتحدث؟

قاطعتني بتصميم: نعم ياجهاد فأنتِ لم تتركي لي مجالًا لمحادثتك، فقد طلبتي مني ألا أحاول أن أكون صديقتك. حتى إنك أصبحتِ شديدة الغرابة وآثرتِ البقاء وحيدة، بل إن خطيبك إلى الآن لا يدرك ما الذي فعله كي تتركينه بلا سبب واضح.

حدقت بها شاخصة الأعين، ماذا تقول؟ أنا من تركت خطيبي؟ سألتها ولم أستطيع السيطرة على ارتجاف نبرة صوتي: هو من تركني!

صدمتني بقولها: لا أنتِ الفاعلة.

اقتربت مني يخوف ينبع من نظراتها وأمسكت بيدي قائلة: جهاد يجب أن تزوري طبيبًا نفسيًا فأنتِ تتوهمين أشياء لا تحدث وتبعدين عنكِ كل من يحبونكِ.

أبعدت يدي عن يدها بعنف وكأنما قد مستني بماس كهربائي:

لا لست أتوهم شيئًا هناك كائن غريب بغرفتي، يرصد تحركاتي وينفذ ما أتمناه فيلقي بكل من حولي الضرر.

على خلاف ثورتي وقفت إسراء بهدوء والتقفت هاتفها واتصلت بأحدهم بعدما ضربت أرقامًا معينة، أجاب عليها الطرف الآخر وسرعان ما أدركت أنها إحدى الفتيات من السكن عندما سألتها عما حلّ بشعورهن، ضغطت إسراء على زر مكبر الصوت قبل أن يصعقني جواب الفتاة:

لم يحدث شيء كل ماهنالك أننا وجدنا جهاد تقتحم غرفتنا على حين غرة ودون أي داعي أخذت تصرخ بعد أن ظلت تحملق بنا بغرابة وفقدت الوعي بعدما أخذت تقول أين ذهب شعركن.

تجمد عقلي وجُن تفكيري، أدركت الآن أنه لا يوجد كائن غريب سوى بعقلي، عقلي وفقط. وكلمات إسراء صحيحة فأنا لست طبيعية وأحتاج طبيبًا.

ولكن مهلًا؟ لمَ عليّ أن أُسلم لكلمات (إسراء)؟

إن كلماتها تقطر حقدًا وكراهية، لقد شعرت بهما داخل ثنايا حروفها المنطوقة، أنا لستُ مجنونة، هي من تكرهني، لا أحد يحب فتاة أمها لا تحبها!

نعم الجميع يكرهني، لا أملك قلبًا محبًا خالصًا سوى أبي، وأبي لا حول له ولا قوة، يكتفي بكلمات المواساة حين تعنفني أني دون داع، ولكن.. ما دخل هذا بمعضلتي الآن؟ إسراء تنظر إليّ مدعية القلق، وأنا أعلم أنها كاذبة مخادعة، تريد مني أن أتشكك بسلامة عقلي، لكن لا، أنا لست مجنونة، هنالك كائن يتربص بي وبأفكاري، سيهلك الجميع بسببي، خرجت هائمة على وجهي لا أبالي بتوسلات (إسراء) كي أبقى معها، طفت الشوارع لا ألوي على جهة معينة، وكأنما أهرب من نفسي بالسير، ولكن لمَ أهرب من نفسي؟ يجب أن أهرب منه، من هذا الكائن

الأسود، ألقيت بجسدي فوق إحدي الاستراحات، أخذت أحدق في المارة ولا أراهم، إلى أن ظهر لي (محمود) من العدم.. إنه خطيبي!

ارتسم القلق على ملامحه، وبلا أي مقدمات قال

بنبرة حملت كل معاني الفزع:

يجب أن آخذكِ لطبيب.

صمت هنيهة وكأنما يخشى من وقع كلماته عليّ قبل أن يكمل بإصرار: طبيب نفسي.

هل سمع حديثي مع إسراء؟ ولكن لا كيف يسمعه؟ أخذ يدي على حين غرة وسحبني داخل سيارة أجرة، كنت كالمسلوبة الإرادة، لا كنت مخدرة. لم أعاتبه على لمسي، ولم أعرض على ذهابنا، وظللت مخدرة حتى بعد أن جلست مع الطبيب، كان رقيقًا هادئًا جعلني أتحدث وأتحدث وكأنما كنت عطشى للكلمات، ولكنه أقر بأني مريضة وسرعان ما تحول إعجابي له كرهًا، خرجت من عنده على عجل دون حتى أن أستمع لتعليماته في طريقة العلاج، ولكن محمود بقي وعرف مواعيد الدواء.

أُقر بأنني أصبحت أهدأ، أثبت، وأكثر هدوءًا، لمَ لا وقد كانت أغلب الأدوية مُهدئات؟

هاتفي يرن، لا أجيب فلست في حالة يُسمح لي بالحديث مع أحدهم، يعلو ضجيجه مرة أخرى فأدرك أنه محمود، ما من أحد أكثر منه إلحاحًا، أجيبه بفتور، فيأتيني صوته الذي لم أستطع أن أحبه يومًا: لا تنسي فهذا معاد دوائك.

تبًا، إنه يتعامل كأنه وليّ عليّ، ألقيت الهاتف وأنا أتمنى لو لم أقابله قط، أنا لم ولن أحبه، لمَ لا يختفي من حياتي وحسب؟

"لكَ ما تشائين"

تردد صدى صوته بهذه الكلمات داخل أذني، سرت رعدة خوف بجسدي، جعلت كل ذرة به تجفل، لم ينته الكائن بعد!!